

المحاضرة التاسعة: التدوين التاريخي في الحضارة الغربية (الأوربية)

أ. العصور الوسطى:

كانت أوروبا خلال القرون الوسطى تعيش حالة من التراجع الحضاري والجمود الفكري استمر نحو ألف عام، بدأت منذ سقوط روما على أيدي القبائل الجرمانية سنة (٤٧٦هـ)، وشمل هذا التراجع العلوم والمعارف بأجمعها وكثيراً من جوانب الحضارة التي انتجها اليونان والرومان، وكان التاريخ من بين تلك العلوم والمعارف، ولم ينج من حضارة روما إلا القليل الذي حفظ في الأديرة والكنائس.

كما أن التراجع في التاريخ وعلميته حصل أيضاً نتيجة لظهور الكنيسة المسيحية التي حلت محل الوثنية في القرن الرابع الميلادي بعد اعلان المسيحية ديانة رسمية للامبراطورية الرومانية من قبل الامبراطور قسطنطين (٣٠٦-٣٣٧م)، فتحول التاريخ الى ايدي رجال الكنيسة من قساوسة ورهبان الذين تعاهدوا تدوينه طول القرون الوسطى، فأفرغوه من كل صفة علمية واخضعوه لرؤى لاهوتية عقائدية، ووظفوه لاغراض دينية تعليمية وارهقوا صفحات مؤلفاتهم بأخبار القديسين وكراماتهم كما اهتموا من المنطلق الديني بأخبار العبرانيين دون سواهم من شعوب العالم القديم، واقتصر التدوين التاريخي لهذه الفترة على الحوليات والتواريخ.

١- الحوليات: وهي طريقة بدائية في تدوين الاحداث عرفت من قبل لدى البابليين والمصريين، ويقوم الكاتب بتدوين ما عاصره من حوادث إلا أن الكثير من الحوادث المدونة كانت عديمة الفائدة من الناحية التاريخية وتدور غالباً حول كرامات ومعجزات القديسين ورجال الدين، ووقوع الظواهر الطبيعية اللافتة للنظر كالزلازل والفيضانات وولادة حيوانات مشوهة... الخ.

٢- التواريخ: وهي تقديم صورة موجزة عن التاريخ العام بدءاً بالخلقة حتى زمن تدوينها واسلوبها ايضاً كان بدائياً فقد اقتصر على ذكر الحوادث المهمة دون وجود ترتيب زمني لوقوعها. ولكن في اواخر العصور الوسطى شهد التدوين التاريخي تطوراً ملحوظاً واصبح اكثر علمية ودقة ويبدو

ان هذا يعود الى تأثير الحضارة العربية الاسلامية التي انتقلت الى الاندلس وصقلية والمدارس الإيطالية.

ب. عصر النهضة (منتصف القرن الرابع عشر-القرن السابع عشر)

شهدت اوربا في منتصف القرن الرابع عشر ما عرف في تاريخها الحضاري بعصر النهضة وهي حركة ثقافية بدأت في دويلات المدن الايطالية الشمالية كجنوة والبندقية التي كانت لها علاقات تجارية مع مدن الشرق اتاحت لها الاتصال ببعض مراكز الحضارة العربية الاسلامية والتعرف عن كثب على بعض جوانب هذه الحضارة ثم انتشرت النهضة من شمال ايطاليا الى بريطانيا واسبانيا وفرنسا وبقية ارجاء اوربا، واستمر عصر النهضة حتى القرن السابع عشر وقد تميز عصر النهضة الاوربية بتقلص نفوذ الكنيسة الكاثوليكية وانحسار هيمنتها على الشأن السياسي والديني والاجتماعي والفكري ومن ثم تلاشي هذه الهيمنة في الحقب التي تلت النهضة وركز الاوربيون اهتماماتهم في عصر النهضة على الدراسات التي تخص الانسان والمجتمع، وتناولوهما من منطلق واقعي دنيوي بعيداً عن التحليلات والرؤى الدينية اللاهوتية، وهو توجه فكري وثقافي عرف بمصطلح الانسانيات، وكان له تأثير فعال في عملية تدوين التاريخ والفكر التاريخي بصورة عامة، لاسيما بعد حركة الاصلاح الديني التي بدأ بها مارتن لوثر بوجه التسلط البابوي وهو (زعيم ديني الماني الجنسية قاد حملة ضد الكنيسة ورفض ما يعرف باسم صكوك الغفران ودعى للتحرر من الكنيسة فحكمت عليه الكنيسة بالهرطقة ونفي الى خارج البلاد).

فسرت حوادث التاريخ في عصر النهضة تفسيراً دنيوياً واقعياً بعيداً عن التفسيرات الغيبية التي كانت ترجعها الى المشيئة الالهية فحسب، أو الى خوارق القديسين وكراماتهم احياناً، وكذلك بدأت تفسيرات مسيرة التاريخ البشري تتحرر من هيمنة التفسير الاوغسطيني الذي يستند الى فكرة العناية الالهية التي سادت طوال العصور الوسطى، فأخذت هذه التفسيرات تتبنى افكاراً اخرى كفكرة الحركة الدورية التي عرفها التاريخ اليوناني في عهد هسيود (٨٤٦-٧٧٧ ق.م.).

■ أهم مميزات الكتابات التاريخية في عصر النهضة هي:

١. الموضوعية
٢. الوضوح
٣. الابتعاد عن صيغ المبالغة والتكلف.
٤. كانت توجهاتها العامة هي الحط من شأن القرون الوسطى لأنها حقب تخلف للعقل الانساني.
٥. اعطت شأنًا وأهمية للعصر الأوربي القديم، لاسيما اليوناني منه لان العقل الانساني وصل فيه الى غاية الرقي والابداع.

■ ابرز مفكري عصر النهضة:

١. في إيطاليا: مكيافيلي وليوناردو برونو وقد شكل الفلورنسيون مدرسة عرفت باسم المدرسة التاريخية الفلورنسية التي كان لها دور كبير في التقدم الذي حصل في اوربا عصر النهضة.
٢. أما خارج ايطاليا فقد ظهر العديد من المفكرين كان من ابرزهم بوليديور فرجل وهو ايطالي عاش في انكلترا وكتب تاريخها في عهد هنري السابع، واصبح منهجه نموذجاً يحتذى به من قبل المؤرخين الذين جاءوا من بعده ووضع اسس التاريخ النقدي التحليلي في انكلترا.

ابدى عدداً من الرهبان اهتماماً بدراسة التاريخ وتدوين حوادثه على أسس علمية موضوعية تختلف عن تلك التي كانت سائدة من قبل، بعد ان تنبه الرهبان لاهمية الوثائق الكثيرة التي تحفظ في الاديرة التي احتوت على مادة تاريخية غزيرة إن احسنوا نقدها وتحليلها ومن ابرز هؤلاء الرهبان الراهب يوحنا بولاند الذي تأسست بأسمه جمعية للدراسات التاريخية لا تزال قائمة حتى الان تعرف بجمعية البولانديين.

حاول عدد اخر من الرهبان كتابة تاريخ جديد للقديسين يقوم على اسس علمية بعيداً عن ذكر المعجزات، وتقوم كذلك على دراسة المصادر التاريخية والروايات التي اعتمدها هذه المصادر

بعمق وموضوعية فتمكن هؤلاء الرهبان من الكشف عن الكثير من الحقائق التاريخية ونقض الصور الزائفة المتداولة التي كانت تشوهها. وقد مهد هذا لظهور علم جديد عرف بعلم الباليوغرافيا الذي يقوم بدراسة المخطوطات والكتب القديمة. إلا أن التاريخ مع كل تلك الخطوات الحثيثة التي كان يخطوها في عصر النهضة ظل حتى منتصف القرن السابع عشر فرعاً ثانوياً قليل الأهمية من فروع المعرفة يزاوله غالباً الرهبان وبعض حواشي الملوك الذين دأبوا على تشويه حقائق التاريخ تقريباً لسادتهم إلا أن كتاباتهم لم تكن تخلو من مادة تاريخية مفيدة.

ت. عصر التنوير:

وصف القرن الثامن عشر بأنه عصر التنوير أو عصر العقل في أوروبا لظهور فلاسفة ومفكرين وادباء عديدين وفي مختلف المجالات ومن بينهم مؤرخين استطاعوا ان يثبتوا أهمية دراسة التاريخ مما جعل موضوع التاريخ يحظى بأهتمام كبير من قبل عامة الناس ويصبح من المعارف البارزة، فبدأ التاريخ يبتعد عن مجالات الادب والاساطير والخوض في كرامات القديسين وخوارقهم.

وهناك سمات مشتركة تجمع معظم الدراسات التاريخية التي ظهرت في القرن الثامن عشر أهمها:

١. اخضع المؤرخين مادتهم التاريخية للنقد والتحليل، ومن ابرز هؤلاء المؤرخين فولتير، ولكن هذا لا يعني ان جميع المؤرخين تعامل مع المادة التاريخية على هذا النحو.
٢. تنوع الجوانب التاريخية التي تناولها المؤرخون في دراساتهم وعدم اقتصرها على الجوانب السياسية والعسكرية والدينية كما هو الحال من قبل.
٣. حاول بعض مؤرخي هذا العصر تجاوز المركزية الاوربية التي صبت اهتمامها بدراسة التاريخ الاوربي ولم تحفل بالتواريخ الاخرى للبلدان غير الاوربية.
٤. اعتمدت اغلب الدراسات التاريخية على تفسيرات عقلية واقعية لحوادث التاريخ بعيدة عن الغيبيات او التفسيرات الدينية كنظرية العناية الالهية للقديس اوغسطين.
٥. اتصفت اغلب الدراسات التي تناولت تاريخ الامم او ما يعرف بالتاريخ العالمي بالموضوعية والتحرر من الاهواء والميول في الحكم على الحوادث.

من أهم الفلاسفة والمفكرين في هذا العصر الفرنسي شارل دي مونتسكيو (ت ١٧٥٥م) الذي له مؤلفات في التاريخ أهمها (عظمة الرومان وانحطاطهم) و(روح القوانين) الذي اتبع فيه منهجية تقوم على المقارنة وبين العوامل التي تتحكم في شكل نظام الحكم في اي مجتمع من المجتمعات البشرية، كما تناول فيه الكثير من حوادث التاريخ القديمة الخاصة بالمجتمعات والامم القديمة وبين انجازاتها وسبب اختلاف امه عن امه أخرى، ولهذا وصف بأنه رائد فلسفة الحضارة.

أما فوليتز (ت ١٧٧٨م) فهو من الموسوعيين الذين عرفوا بفلسفته العقلية الساخرة الى جانب دراساته التاريخية الغزيرة التي جعلته اكبر المؤرخين الفرنسيين في عصره، فله العديد من المصنفات التاريخية مثل شارل الثاني عشر، وعصر لويس الرابع عشر، وحوليات امبراطورية روسيا، ونشأة المسيحية... الخ. وتميز منهجه بالبراعة في تحليل الشخصيات التاريخية وحوادث التاريخ والمقارنة بينهما، والاهتمام بتاريخ الحضارات ليس تاريخ الملوك والساسة، وتناوله للتاريخ البشري ككل ليس فقط الاوربي ضمن دائرة بحثه واهتمامه، والتفسير الواقعي للحوادث التاريخية بعيداً عن غيبيات الكتاب المقدس، وانتقاده اللاذع لتاريخ اليهود الذي ورد في العهد القديم.